2

قصص الصحابة

صــــوت من الســماء

سلوى العنانى



صوت من السماء

(بلال بن رباح)

[أنا الحبشيُّ الذي كان بالأمسِ عبدًا .. كنتُ ضالا فهداني الله.. وكنتُ عبدًا فأعتقني الله] بلال بن رباح

هذا يومٌ من أعظم أيامِ التاريخِ .. وربما كان أعظمَها .. ففى هذا اليوم فتحَ الله للإسلامِ فتحًا مُبينا .. فدخل الرسولُ الكريمُ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ مكةَ المكرمةَ على رأسِ عشرةِ آلافٍ من المسلمين .. كان منهم الأنصارُ ومنهم المهاجرون ، ومنهم أبناءُ القبائلِ الأخرى التي أسلمت ، وآمنت بالله ربًّا ، وبمحمدٍ رسولاً..

كان (محمدٌ عليه السلامُ) يتمنى أن يدخلَ مكةَ دون أن يسفكَ دمًا على أرضِها لتظلَّ (حَرَاما) كما أراد الله لها ، وقد مَنَّ الله عليه بهذا ..

فها هي طلائعُ المسلمين تقتربُ من بيوتِ مكةَ ، ولم يظهرْ مَنْ يعترضُ سَيْرَها ..

إلى البيتِ الحرامِ اتجه النبيُّ ، ومعه باقي المسلمين وارتفع نداؤهم .. لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ ، وتسابقوا إلى تحطيم الأصنامِ داخلِ الكعبةِ، ومِنْ حولها .. وأزالوا الرسومَ ، ومحوا كلَّ مظاهر الشركِ وارتفعت تهليلاتهم .

{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}
[الإسراء:81]

وجاء موعدُ الصلاةِ .. ومن فوق الكعبةِ ارتفع للمرة الأولى صوتٌ جميل ، بنداءِ الحقِّ .. فكان ، وكأنه (صوتٌ من السماء) .

الله أكبرُ .. الله أكبرُ .. الله أكبرُ .. الله أكبرُ ..

أشهدُ أن لا إلَهَ إلا الله .. أشهدُ أن لا إلَهَ إلا الله ..

أشهد أنَّ محمدًا رسولُ الله ..

أشهد أن محمدًا رسولُ الله ..

حي على الصلاة .. حي على الصلاة .

حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

الله أكبرُ .. الله أكبرُ .. لا إلهَ إلا الله ..

فَمَنْ هذا الرجلُ الذى كان له شرفُ إطلاقِ نداءِ الحقِّ بالصلاةِ لأوَّل مرةٍ في الكعبةِ المشرفةِ يوم النصفِ من رمضان في العام الثامن للهجرة ؟؟..

من هذا الرجلُ النحيلُ شديدُ السمرةِ مفرطُ الطول .. قصيرُ الشعر؟

إنه (بلال بن رباح) ..

أول مؤذن في الإسلام ..

أول من رفع نداءَ الصلاةِ في مدينةِ رسولِ الله ..

كما علَّمه إياه الرسولُ ..

ثم هو يحظى بشرفِ رفع نَفْسِ النداءِ في الكعبةِ يومَ فَتَحَ المسلمون مكةَ ، ودخلوها حاملين رايةَ الإسلامِ ، والتوحيد لله ..

فهل نرجعُ قليلا مع الأيام لنعرفَ من هو (بلال بن رباح) ؟

كان هذا الرجلُ قَبْلَ إسلامِه (عبدًا) يرعى الغنَمَ لرجلٍ من سادةِ قريشٍ يُدْعى (أمية بن خلف)، وكان أجرُه (بِضْعَ تمرات) يأخذُها في نهايةِ يومٍ شاقٍّ من العمل، ويتنحَّى جانبًا، فيأكلُ منه ما يأكلُ، ثم يفترش الأرضَ، لينامَ .. وفي الصباح يمضي مع الإبلِ إلى حَيْثُ الكلأُ غير عابئ بحرارة الشمسِ، ولا بقسوةِ الطبيعةِ .. وماذا هو فاعلٌ، وهو عبدٌ لا أهْلَ له، ولا عشيرةَ، وهو لا بد أن يستمرَّ في عمله، حتى يضمنَ هذه التمراتِ التي لا تكادُ تَسُدُّ رمقه ؟!

كان يتأملُ الطبيعةَ حوله .. هذه الشمسُ تدور في فَلكٍ محكمٍ، فتنتظمُ الأيامَ، والليلَ، والنهارَ، وهذا القمرُ يأتي، فينظمُ الشهورَ، والسنواتِ.

هذا الكلأُ ينمو بين الصخورِ، وفي الرمالِ .. وهذه السحبُ تأتي أحيانا بالمطرِ، وأحيانا تعبرُ الأرضَ فلا تجودُ عليها بشيءٍ من الماء ..

كان راضيًا بنصيبه من الحياة .. فهو عبدٌ أجيرٌ ليسَ له حقُّ المعرفةِ .. كان يحسُّ أنه فَقَدَ الحقَّ في أن يحلمَ بأن يكون

يومًا مثل باقي البشرِ .. فهو أســودُ البشـرةِ وابـن (أمَـةٍ)(*) كانت هي الأخرى سوداء .

وسط ظلامِ الحيلة حوله تسللَ إليه يوما طيفُ نورٍ أيقـظَ فيه الأملَ .. وداعبَ الحُلْمَ ..

فقد سمع أن نبيا ظهرَ في مكةَ يدعو النـاسَ إلى عبادة إلـهٍ واحدٍ ويقول : إن الناسَ سواسيةٌ ، ولا فَضْلَ لأبيضَ علـى أسودَ إلا بالتقوى.. وإلى هذا الرسولِ النبيِّ ذهـب (بـلال) ، فسمع حديثا لم يسمعه مــن قبـل .. وأحـسَّ لأوَّلِ مـرةٍ أنـه إنسانٌ مثل باقي البشرِ ،

وأنه قادرٌ على أن يحلُم ، وأن يحقق أحلامه ..

ونطق (بلالٌ) بالشهادةِ بين يديِّ رســولِ الله وبـدأ يـأخذ عنه تعاليمَ الإسلامِ .. وبدأ يشعرُ وكأن ضيـاءً يغمـرُ نفسَـه وينيرُ قلبَه..

ويصلُ إلى علمِ (أميةَ بن خلَفٍ) مـا أقـدمَ عليـه (العبدُ

(*) الأمةُ : الجارية .

الحبشي) ، فيثور ثورةً ما بعدها ثورةً .. فكيف لهذا العبدِ أن يعتنق دينا غير دين سيله .

كان هذا السيدُ زعيمًا في قومه .. وكان واحدًا من هـؤلاء الذين ثاروا ضد دعوةِ هذا الدين الجديدِ وتوعدوا صـاحبَ الدعوةِ، وكلَّ من يؤمن به.. بالويلِ ، والثبورِ .

في سـاعةِ الظـهيرةِ جـاءوا (ببـلال) مقيـدًا بالسلاسـلِ فطرحوه أرضًا فوق الرمـلِ ، والحصـى الملتـهبِ ، ثـم حمـل مجموعـةً مـن الرجـالِ صخـرةً ضخمـةً ، ووضعوهـا فـوق صدرِه ..

وجاء سيدُه يحملُ السوطَ ، فَيَهْوِي به على مـا ظَـهَرَ مـن جَسَدِه طامعًا في أن يسمعَ منه كلماتِ اعتذارٍ ، أو عودةٍ عن هذا الدينِ الجديدِ الذي اعتنقه .. لكنه لم يسمعْ مـن بـلالٍ إلا كلمةً واحدةً .. أحدٌ أحَدْ .. أحدٌ أحَدْ .

وتزدادُ ثورةُ (أميةَ بنِ خَلَـفٍ) ويـأمرُ بمضاعفـةِ العـذابِ على جَسَدِ (بلال) .

ويبدأ الكفارُ في مساومة (بلال) .

- اذكر آلهتنا بالخير فيتوقف عنك هذا العذاب .

- قل ربي اللات والعُزَّى .

- اذكر (محمدًا) بسوء ..

فقط ينطق بكلمةٍ واحدة ، ويتوقف العـذابُ ، لكنـهم لم يسمعوا منه إلا ما آمن به ..

أحدٌ أحَدْ .. أحدٌ أحَدْ ..

ويعلم (الصدِّيقُ) أبو بكر بما حَدَثَ (لبلالٍ) فيذهبُ إلى (أميةَ بنِ خَلَفٍ) يطلب منه شراءَ (العبدِ المتمـردِ بـلالٍ) .. ويفرحُ أميةُ بهذه الصفقةِ .. فها هو يتخلصُ من هذا العبدِ المشاغبِ، ويزيحُ عن نفسِه عارَ هذا الدينِ الـذي اعتنقـه .. ثـم هـو يقبـضُ ثمنـه .. وهـذا خيرٌ مـن قتلـهِ .. ويسـلمُ (أبو بكر) الدراهمَ إلى (أميةَ) .. ويصطحبُ معه (بـلالا) ، ويبشِّره بالحرية ..

نعم ، فقد أعتق أبو بكر (بلالا) منذ لحظة شـرائه ، وإلى

أصحابِ الرسول صلى الله عليه وسلم ينضمُّ (بلالٌ)، ويتدارسُ الدينَ، ويحفظُ القرآنَ، ويداومُ على الصلاةِ ..

ثم يهاجرُ مع من هاجرَ من المسلمين إلى المدينة هربًا من ظُلْمِ كفارِ مكةَ، وطغيانهم.

وفي المدينة بدأتْ دولةُ الإسلامِ تُرْسِي أركانها .. فَفُرِضَتْ الزكاةُ، وفُرِضَ الصومُ، واتسعتْ رقعةُ المدينةِ بزيادةِ عددِ المسلمين وكان لابدَّ من وسيلةٍ تجمعُ المسلمين للصَّلاةِ في وقتها .. وعلى لسانِ (جبريلَ) جاء الأمرُ للنبيِّ الكريمِ يرْفعِ الأذانِ في موعدِ الصلاةِ..

ويختار النبيُّ أجملَ صحابته صوتا لكي يرفع نداءَ الحقِّ في سماءِ (المدينةِ).

وفي موعدِ كل صلاةٍ يَصْعَدُ (بلالٌ) فوقَ بيتٍ مرتفعٍ يجاورُ مَسْجدَ الرَّسولِ، فيطلقُ صوتَه الجميلَ العذبَ بأحلى كلماتٍ سمعتها أُذُنٌ على سطح الأرضِ ..

الله أكبر .. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمدًا رسول الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله ..

حي على الصلاةِ .. حي على الصلاةِ ..

حي على الفلاحِ .. حي على الفلاحِ ..

الله أكبر .. الله أكبر ..

لا إله إلا الله ..

لقد ارتفع هذا الصوتُ يومًا مرددًا - أَحَدٌ أَحَدْ - بينما كان العذابُ ينهالُ على جسدِ صاحبه .

وها هو اليومَ يرفعُ الأذان ، ويدعو الناسَ للصلاةِ ، وهو فخورٌ.. سعيدٌ .. راضٍ .. فهو اليوم رجلٌ حُرٌّ .. مؤمنٌ .. وها هم المسلمون ازدادوا عُوْدًا ، وقوة ..

ولم يرضَ كفارُ قريشٍ ، وغيرها من قبائلِ العربِ بهذا الاستقرار الذي ينعمُ به المسلمون في المدينة . وأزعجتهم هذه القوة في العددِ والعُدَّةِ التي وصلوا إليها .. فتعددتْ غزواتُهم يتمنون أن يكسروا شوكةَ الإسلامِ ، ويشغلوا

المسلمين عن دينهم بحروبٍ تُفْني رجالهم ، وتبلد ثرواتـهم ، وكانت (بدرٌ) هي أولى الغزواتِ التي شنَّها كفـارُ قريشٍ ، وحلفـاؤهم علـى المسـلمين .. وتسـابقَ المسـلمون لحمـل السلاح ، دفاعا عن دينهم ، وخرجوا للقاءِ هؤلاءِ المشـركين الذين سَبَقَ أن أذاقوهـم مُرَّ العـذاب ، والاضطـهادِ أثنـاء وجودهم في مكةَ .. وكان (بـلالٌ) واحـدًا مـن بـين هـؤلاءِ الذيـن انطلقـوا إلى سـاحةِ القتـالِ ، مدافعـين عـن دينـهم العظيم .

وكان شعارُه الذي يصيحُ به طوال المعركة :

أحد أحد .. أحد أحد ..

وتأتي الفرصةُ إلى (بلال) ..

وترتفع يدُه بالسيفِ ويثأر لنفسِه من (رأسِ الكُفْرِ أميـةَ ابنِ خلفٍ) ..

هذه اليدُ الـتي قيدهـا (أميةُ) يومًـا بـالأغلالِ والقيـودِ ، ليرغم صاحبَها على الارتدادِ عن دينه ..

هذه اليدُ أصبحتْ اليومَ حُرَّة ، تدافع عن دين الحقِّ ، عن الإسلامِ ، ونبي الإسلامِ ..

كان (بلالٌ) رفيقا حَمِيْمًا لرسول الله .. لا يكاد يفارقـه في أيامِ السِّلْمِ .. ولا في أيامِ الحربِ ، وفي القتال يـراه أصحابُـه بطلا ، مقاتلا ، مُدافعًا عن الإسلام ، وعن رسولهِ .. ويـزدادُ حُبُّ رسولِ الله كل يومٍ لبلالٍ حتى كان يصفه بأنـه (رجـلٌ من أهلِ الجنةِ) .

على أن هذه المكانةِ التي خَصَّها به رسولُ الله لم تدخلْ في نفسِه غرورًا ، ولا كِبْرًا ..

وكان دائما يردد (أنا الحبشيُّ الذي كان بـالأمسِ عبدًا .. كنتُ ضالا فهداني الله .. وكنتُ عبدًا فأعتقني الله) .

وينتقل النبيُّ الكريم إلى الرفيق الأعلى ويغمرُ المسـلمين الحزنُ وإن كانوا قد رضوا بقضاء الله ..

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَـإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِـبْ عَلَـى

عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

[آل عمران : 144]

وكان صحابةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ الناسِ حُزنا، فقد ألفوا صُحْبَته الجميلةَ ، وأحبوا حديثه الطيب ..

فكيف يطيقُ رجلٌ مثل (بلال) أن يبقى في المدينةِ وقد خَلَتْ من الحبيبِ المصطفى الذي كان أحبَّ عنده من نفسه ؟!..

طلب (بلالٌ) من خليفة رسول الله (أبي بكر) أن يأذن له بالرحيل ، لأنه يفضلُ أن يقضي ما بقى من عمره مرابطا(*) في سبيل الله ..

لقد اختار (بلال) هذا الموقفَ ، لأنه سَمِعَ رسولَ الله ـ عليه السلامُ ـ يقول : "أفضلُ عَمَلِ المؤمنِ الجهادُ في سبيل الله"

(*) المرابط هو الرجل الذي يقف عند حدود الوطن حاميًا وحارسًا .

ولا يملكُ (الصديقُ) خليفةُ رسولِ الله إلا أن يلبي رغبةَ (بلال) ، وإن كان قد تمَنَّى أن يبقيه في المدينة مؤذناً للمسلمين بها .. وإلى الحدودِ الشماليةِ لدولةِ الإسلامِ – إلى الشامِ – سافرَ (بلالٌ) حيث قَضَى ما تبقى من حياته ، وانتقل إلى جوار ربه وهو في الستين من عمره .. ودُفن في بلاد الشام .

عليه رضوانُ الله .. ورحمتُه ، وبركاتُه ..



